الباب السادس والعشرون

في الظلم

تجاوز الحدود:

يحكى أن معاوية بن أبي سفيان، كان جالساً في مجلس بدمشق، وكان المجلس مفتح الجوانب بحيث يدخل من تلك الفتحات الهواء المنعش، فبينما هو جالس ينظر إلى بعض الجهات في يوم شديد الحر، وقد اشتد نفح الهجير، إذ نظر فرأى رجلاً يمشي نحوه وهو يتلظى بالنار من حرّ الرمضاء، حافي القدمين، رثّ الثياب، يرى عليه أثر السفر، فالعناء والنصب بادٍ على ملامحه، فتأمّله معاوية وقال لجلسائه:

هل خلق الله أشقى ممن يحتاج إلى الحركة في هذه الساعة العصيبة؟ فقال بعضهم: لعله يقصد أمير المؤمنين، فقال معاوية: والله لئن كان قاصدي سائلاً لأعطينه، أو مستجيراً لأجيرنه، أو مظلوماً لأنصرنه، يا غلام: قف بالباب فإن طلبني هذا الأعرابي فلا تمنعه من الدخول عليّ.

فخرج الغلام مسرعاً، والتقى بالأعرابي، فسأله: ما تريد يا أعرابي؟. فقال الأعرابي: أريد أمير المؤمنين، قال: أدخل، فدخل على أمير المؤمنين معاوية وسلّم عليه بالإمارة فرد عليه السلام، وسأله: ممن الرجل؟.

قال الأعرابي: أنا من تميم، قال معاوية: ما الذي جاء بك في هذا الوقت الشديد الحرّ؟ قال الأعرابي: جئتك مشتكياً، وبك مستجيراً، قال معاوية: ممن تشتكي، وممن تستجير، قال الأعرابي: من مروان بن الحكم، عاملك على المدينة المنورة، ثم أنشد هذه الأبيات:

معاوية يا ذا الفضل والحلم والعقل ... وذا البر والإحسان والجود والبذل
أتيتك لما ضاق في الأرض مذهبي ... وأنكرت مما قد أصبت به عقلي
ففرج كلاك الله عني فإنني ... لقيت الذي لم يلقه أحد قبلي
وخذ لي ـ هداك الله ـ حقي من الذي ... رماني بسهم كان أيسره قتلي
وكنت أرجي عدله إن أتيته ... فأكثر ترادادي مع الحبس والكبل
سباني سعدى وانبرى لخصومتي ... وجار ولم يعدل وغاصبني أهلي
فطلقتها من جهد ما قد أصابني ... فهذا أمير المؤمنين من العدل

فلما سمع معاوية إنشاده، والنار تتوقد من فِيْهِ قال: مهلاً أخا العرب، إشرح لي قصتك، وأفصح عن أمرك. قال الأعرابي: يا أمير المؤمنين، لقد كانت لي زوجة

وهي إبنة عمي، وكنت لها محباً وبها كلفاً، وهي كذلك،وكنت بها قرير العين، وطيب العيش،وكانت لي صرمة من الإبل (الصرمة ما بين العشرين إلى الثلاثين، وقيل غير ذلك) وكنت أستعين بها على قيام حالي، وإصلاح أودي ، فأصابتنا سنة ذات قحط شديد، أذهبت الخف والظلف، وبقيت لا أملك شيئاً، فلما قلّ ما بيدي، وذهب حالي ومالي، بقيت مهاناً ثقيلاً على وجه الأرض، وقد ابتعد من كان يشتهي القرب مني، وازورَّ عني من كان يرغب في زيارتي.

فلمّا علم أبوها ما بي من سوء حالي، وشرّ مآلي،أخذها مني، وسألني الفراق، وجحدني وطردني، وأغلظ عليّ، فأتيت إلى عاملك على المدينة المنورة، مروان ابن الحكم مستصرخاً إليه، وبه راجياً لينصرني، فأحضر أباها، وسأله عن حالي فقال: ما أعرفه قبل اليوم.

الظلم مرتعه وخيم:

فقلت: أصلح الله الأمير، إن رأى الأمير أن يحضرها ويسألها عن قول أبيها فليفعل، فبعث إليها الأمير مروان بن الحكم من يحضرها، فحضرت مجلسه، فلما وقفت بين يديه وقعت منه موقع الإعجاب، فحمله إعجابه بها أن يصير خصماً لي ومنكراً عليّ أمري، وانتهرني وأغلظ القول وأظهر الغضب، وبعث بي إلى السجن، فوجدتني كأنني خررت من السماء في مكان سحيق لهول ما أصابني.

ثم التفت إلى أبيها، فقال له: هل لك أن تزوجها مني على ألف دينار، وعشرة آلاف درهم لك؟. وأنا ضامن لك على خلاصها من هذا الأعرابي، فطمع أبوها في المال وأجابه لذلك.

فلما كان اليوم الثاني، بعث إلي وأخرجني من السجن، وجاء بجماعة وأوقفني بين يديه، ونظر إلي كالأسد متهيئاً للإنقضاض على فريسته، وقال:

يا أعرابي طلِّق سعدى، فقلت: لا أقدر على هذا، ومعنى ذلك أنك تريد إخراج الروح من الجسد، وما إن علم برفضي لطلبه حتى سلّط عليّ جماعة من غلمانه أحضرهم لتعذيبي وإرغامي على تطليقي لسعدى، فشرعوا يعذبونني بأنواع العذاب، وتحت سياط غلمانه فلم أجد بدًّا من إجابة أمره، ففعلت، ثم رجعت إلى السجن ليخلو له الجوّ، فمكثت فيه إلى أن انقضت عدّتها فتزوّجها

ودخل بها ، تلك هي قصتي مع عاملك مروان بن الحكم، لذا جئتك مستجيراً بك وملتجئا إليك، فقال الأعرابي:

في القلب مني نارُ والنار فيها استعارُ
والجسم مني سقيم واللون في اصفرار
وفي فؤاديَ جمر والجمر فيه شرار
والعين تبكي بشجو والدمع منها غزار
والحب داء عسير فيه الطبيب يحار
حملت منه عظيماً فما عليه اصطبار
فليس ليليَ ليل ولا نهاري نهار

وما إن انتهى من إنشاده حتى أخذته رعدة، فخرّ مغشياً عليه، وأخذ يتلوّى كالحية المقتولة، وخشينا أن يقضي نحبه، فلما سمع معاوية كلامه وإنشاده قال :لقد تعدى مروان بن الحكم طوره فظلم متجاوزاً حدود الدين، واجترأ على حرم المسلمين، وما بهذا أمرته، ثم أقبل على الأعرابي، فقال: والله يا أعرابي ، لقد أتيتني بحديث لم أسمع بمثله قطّ، ثم دعا بدواة وقرطاس وكتب ما يلي:

إلى مروان بن الحكم :قد بلغني أنك اعتديت على رعيتك وانتهكت حرمة من حرم المسلمين، وتعدّيت حدود الدين، وينبغي لمن كان والياً أن يغض بصره عن شهواته، ويزجر نفسه عن لذاته ، وكتب في آخره:

ركبت أمراً عظيماً لست أعرفه أستغفرالله من جور أمرىءٍ زانِ
قد كنت تشبه صوفيّاً له كتب من الفرائض أوآيات فرقان
حتى أتاني الفتى العذري منتحباً يشكو إليَّ بحق غير بهتان
أعطي الإله عهوداً لا أخيس بها أولا فبرئت من دين وإيمان
إن أنت راجعتني فيما كتبت به لأرجعنك لحماً بين عقبان
طلق سعاد وعجلها مجهزة مع الكميت ومع نصر بن ذبيان
فما سمعت كما بلغت من عجب ولا فعالك حقاً فعل إنسان

ثم طوى معاوية الكتاب وطبعه بخاتمه، واستدعى الكميت ونصر بن ذبيان وكان يعتمد عليهما في قضاء الحوائج لأمانتهما، فأخذا الكتاب وسارا يغذّان السير إلى

المدينة المنورة، ولما وصلا المدينة المنورة، دخلا على مروان بن الحكم وسلّما إليه الكتاب ففضّه وقرأه، ثم ارتعدت فرائصه،وطلّقها في الحال وجهزها، وبعث بها إلى أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان، وكتب إليه كتاباً ختمه بالبيت التالي:

حوراء يقصر عنها الوصف إن وصفت أقول ذلك في سر وإعلان

فلما وصل كتاب مروان بن الحكم إلى معاوية وقرأه قال:لقد أحسن في الطاعة وأطنب في الحسن في وصف الجارية، ولما رأى معاوية الجارية رأى من الحسن والجمال ما لم ير قبل ذلك، وخاطبها مستنطقاً إياها ، فوجدها من أفصح نساء زمانها، ثم قال: عليّ بالأعرابي، فأتي به وهو على غاية من سوء الحال.

فقال أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان:يا أعرابي هل لك عنها من سلوة وأعوضك عنها ثلاث جوار مع كل جارية ألف دينار،وأعطيك من بيت المال في كل سنة ما يكفيك ويعينك على صحبتهن؟.

فلما سمع الأعرابي كلام أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان شهق شهقة سقط على أثرها على الأرض، وظنّ معاوية أنه قد مات، ولما أفاق قال له معاوية: ما بالك؟، فقال الأعرابي : شرّ بال وأسوأ حال، استجرت بك من جور مروان بن الحكم لظني بعدلك، ففوجئت بجورك فبمن أستجير من جورك ثم أنشد قائلاً:

لا تجعلني والأمثال تضرب بي كالمستجير من الرمضاء بالنار
أردد سعاد على حيران مكتئب يمسي ويصبح في هم وتذكار
قد شفّه قلق ما مثله قلق وأسعر القلب مني أي إ سعار
كيف السلو وقد هام الفؤاد بها وأصبح القلب عنها غير صبّار

ثم قال يا أمير المؤمنين: لو أعطيتني ما حوته الخلافة دون سعدى. فقال أمير المؤمنين معاوية: يا أعرابي إنك مقرّ بأنك طلّقتها، ومروان مقّر بأنه طلّقها، ونحن نخيرها، فإن اختارت سواك زوجناه بها،وإن اختارتك أرجعناها إليك، قال الأعرابي: أفعل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ودعاها معاوية وقال لها: ما تقولين يا سعدى؟ أي أحب إليك أمير المؤمنين في عزّه وشرفه وسلطانه وقصوره،وخدمه وحشمه وما تصيرين إليه عنده ؟ أو مروان بن الحكم في عسفه وظلمه وجوره، وما علمت منه؟ أو هذا الأعرابي مع فقره وجوعه وسوء حاله؟ فعبرت عن رأيها بهذين البيتين:

هذا وإن كان ذا فقر وإضرار أعز عندي من قومي ومن جاري
وصاحب التاج أو مروان عامله وكل ذي درهم منهم وديـنار

ثم قالت: والله يا أمير المؤمنين، ما أنا بخاذلة له لحادثة الزمان، ولا لغدرات الأيام، والزمان ذو غير والأيام دول، والرضا بقضاء الله يزيد المؤمن إيماناً، ومن المحال دوام الحال، ويزيدني التمسك برأيي هذا هو أن لي معه صحبة طويلة لا تنسى، ومحبة لا تبلى، وأنا أحقّ من يعبر على الضراء، اعترافاً بما تنعّمت معه في الماضي على السراء.

فتعجّب أمير المؤمنين، معاوية بن أبي سفيان من رجاحة عقلها، ومن مروءتها، وخالص محبّتها، فَعَلَا (يعلو) قدرها لديه، وأمر لها بعشرة آلاف درهم، وردّها إلى زوجها الأعرابي بعقد جديد، فرجع الأعرابي فرحاً مسروراً شاكرا لأمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان وهو ينشد:

خلوا عن الطريق للأعرابي ألم ترقُّوا ويحكم مما بي

إنها قصة فيها من المواقف والعبر، والشهامة ما يتحيّر منها الفكر، موقف الوالد الذي تنكر لابن أخيه، بدعوى أنه لا يعرفه، وليس له صلة به أو معرفة، زوج ابنته، التي رضيت به زوجاً، صابرة على الضراء، شاكرة على النعماء، لإيمانها أن الدنيا لا تدوم على حال،رضي بأن يعذّب، مجرد ما أغراه به أمير المدينة المنورة، مروان بن الحكم.

إن المرأة كانت عاقلة، حينما رضيت بأن تعود إلى ابن عمها ، وليس عاراً، أن يبتلى بالفقر، ذلك اختبار من الله ، وكأني بلسان حالها ينشد قول القائل:

نعيمك يا دنيا نعيم سينفد وملك جنان الخلد ملك مؤبد
فلو كانت الدنيا تدوم لأهلها لكان رسول الله فيها مخلد

موقف أمير المدينة :

إن موقف أمير المدينة المنورة، مروان بن الحكم، موقف يدل على أن بعض الناس يغريهم المنصب، وبدلاً من أن يكون سبباً لحلّ مشاكل الناس، إذا بهم يستغلّون مركزهم، للتفريق بين المرء وزوجه، يخونون الأمانة التي أؤتمنوا عليها، يظنون أنهم ما خولوه يؤهلهم لأن ينتهكوا حرمات الله، ولا يريدون أن يكونوا سبباً للحكم بين الناس فيما شجر بينهم، وأن ينصروا الحق، ويعطوا كلّ ذي حقّ حقه.

إن انتهاك حرمة الضعفاء من الناس، لا يقرّه عقل ولا دين، فهم يستغلون ضعف الناس، فيزيدون المشاكل تعقيداً، فينحازون مع الزمان على الضعيف، حينما تشد عليهم ظروف الزمان، انطلاقاً من القوّة التي مكّنوا منها، والمثل يقول: (إذا دعتك قدرتك إلى ظلم الناس فتذكر قدرة الله عليك)، وويل لمن تسلط على إنسان ليس له نصير إلا الله، والزمان ذو غير،وما من ظالم إلا سيبلى بمن هو أظلم منه، وقال الشاعر:

صبرت على التقريع والضرب والأذى فأوصلني ربي لرشف المباسم
وما من يد إلا يد الله فوقها ولا ظالم إلا سيبلى بظالم

موقف معاوية :

إن موقف معاوية بن أبي سفيان، وغضبه على من وثق به و اختاره أن يكون أميراً على مدينة رسول الله ﷺ، وقد استفزته حالة الأعرابي المظلوم، وإسراعه في إحضار زوجة الأعرابي، وقد كان رغب أن يراوغ ، عندما رأى جمال المرأة، وفصاحتها وتعقّلها، وقد حاول أن يغري الأعرابي بالمال، والجواري وإعطائه من المال ما يغنيه طول حياته، ظنًّا منه أن كلّ الناس يمكن أن يجعلوا المال هدفهم وغايتهم، والمال والجاه والشرف، ما هي إلا عارية، وموهبة من الله وابتلاء.

لقد كان موقف المرأة الحصيفة ، موقف الشرف والأنفة، وأظهرت بأنها تتمسك بابن عمها ، ضاربة بالمال والجاه والشرف عرض الحائط ،فهي تفضل الرجوع إلى ابن عمها، بعد أن خيّرها معاوية ، بينه مع خدمه وحشمه وماله وشرفه ، وبين مروان بن الحكم مع ظلمه وعسفه، وبين ابن عمها مع فقره.

قطوف و مواقف:

يقال إن خمسة أشياء من الأخلاق، وهي علامات من علامات علماء الآخرة، وردت في خمس آيات من **كتابِ الله** العزيز، وهي: (الخشية، والخشوع وخفض الجناح للمؤمنين، وعدم الخضوع للكافرين، والزهد في الدنيا من أجل ثواب الله).

الأول: الخشية من الله تعالى: فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [سورة فاطر: ٢٨].

الثاني: الخشوع لله تعالى، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۜ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [سورة آل عمران: ١٩٩].

الثالث: خفض الجناح للمؤمنين: فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الحجر: ٨٨]. وقال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الشعراء: ٢١٥].

الرابع: حسن الخلق في عدم الخضوع للكافرين: فمن ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩].

الخامس: الزهد في الدنيا: ومن ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [سورة القصص: ٧٩-٨٠].

ومما يحكى من تدبير الله والرضى بما قدره الله على عباده، أن أحد الصالحين كان إذا أصيب بشيء أو ابتلي ببلاء يرضى بقضاء الله، وكان قد اعتاد على قول خير، وفي ذات ليلة جاء ذئب ودخل المنزل، فأكل ديكاً له، فقيل له: لقد أكل الذئب الديك، فردّ بقوله: خيراً إن شاء الله.

وفي ليلة من الليالي مرّ قوم بمنزله فرأوا كلبه الذي اتخذه للحراسة فقتلوه، فلما أخبر بذلك قال: خيراً إن شاء الله، وفي ليلة أخرى مات حماره فأخبر بذلك، فقال: خيراً إن شاء الله، فضاق أهله بذلك ذرعاً.

وفي إحدى الليالي أغار قوم على أهل البلدة التي هو فيها وأهله،فقتلوا جميع من فيها،وما نجا إلا هو وأهله،إذ استدل القوم الغازون بصياح الديك ونباح الكلب ونهيق الحمار، وبما أن الرجل لم يبق له ما يدلّهم على وجوده، لاديك يصيح ولا كلب ينبح ولا حمار ينهق، فنجا فسبحان مدبرالأمور بحكمة، فخيرة المولى لعبده خير من خيرة العبد لنفسه.

حصافة الإمام الخليلي:

يحكى أن في زمن الإمام محمد بن عبد الله بن سعيد بن خلفان الخليلي رحمه الله ورضي عنه، وقعت ثورة من أناس على أحد العلماء الفضلاء، فأرسل الإمام الخليلي رجلاً من قبله من أهل الفضل لينظر جلية الأمر، وأوصاه أن يصلح بين الثائرين وبين العالم بتقريب وجهات النظر بين الفريقين.

فلما وصل الرجل إليهم، وأخذ يبحث عن حقيقة الأمر، وكان في الثائرين من الرجال الدهاة،الذين لا يرقبون في مؤمن إلًّا ولا ذمة، يقلبون الحقائق بدهائهم وأظهروا بأنهم على حقّ، فيما ادعوا على عالمهم، وهكذا استطاعوا أن يجعلوا رسول الإمام ـ بما زوقوه، وبما حبكوه بدهائهم ـ إلى جانبهم، إذ وجد أكثر الناس معهم، فَمَالَ مع الكثرة.

فلما رجع رسول الإمام إلى الإمام محمد بن عبد الله الخليلي، بعد انتهاء مهمته، سأله الإمام عما رأى وعمل، فقال الرسول: لقد رأيت أهل البلد كلهم مجمعين على كلمة واحدة، ورأي واحد ضد العالم فلان بن فلان، وما رأيت مع العالم إلا القليل من أهل البلد،والأمر إليك أيها الإمام.

فأجاب الإمام محمد بن عبد الله الخليلي من فوره: لقد استدللنا من كلامك هذا أن الحق عند العالم فلان، فقد غرّتك الكثرة من الناس، وأكثرهم للحقّ

كارهون، وقال الشاعر:

والحق قد نعلمه ثقيل يأباه إلا نفر قليل

الزمرد الفائق للشيخ محمد بن راشد الخصيبي الجزء الثالث ١٢٣.

من مواقف القضاة الورعين:

يروى عن أحد القضاة الورعين الذين يخشون الله في سرّهم وعلانيتهم ولا يحكمون إلا إذا تبيّن لهم وجه الحق، ويتثبتون إذا تضاربت أقوال وحجج الخصوم، فيرجئون الفصل فيما اشتبه الأمر فيه إلى وقت آخر.

وقد حصل مثل ذلك للقاضي الورع عافية بن زيد بن قيس الأزدي، إذ كان القاضي عافية يتقلّد القضاء لأمير المؤمنين المهدي، بأحد جانبي مدينة السلام خلفا للقاضي ابن علاثة، فتقدّم إلى القاضي عافية بن زيد خصمان اختصما في قضّية معضلة، أحد الخصمين من شيراز، والثاني من أصبهان، وكل خصم أحضر ما يؤيد به حقه من وثائق وشهود، وأخذ كل خصم يدلي بحجج، تحتاج إلى تأمل وتثبت وتمحيص، فردّ الخصوم رغبة في الصلح والصلح خير، أو يتبين لي وجه الحق، فأحكم على ما وضح من وجه الصواب، ذلك الذي دفعني لعدم الحكم في القضية.

أما أحد الخصمين فقد علم بأني أحبّ الرطب السكري: (وهو من أجود أنواع الرطب، وأحسنها منظراً وحلاوة)، يستساغ أكله خلالاً ورطباً وتمراً، فعمد إلى جمع كمية منه، وهو أول أوقات الرطب، وقد لايتهيأ جمع تلك الكمية لندرته في ذلك الوقت لأمير المؤمنين المهدي، وما رأيت أحسن منه، وقدم رشوة لبوابي جملة دراهم، على أن يدخل ذلك الرطب إليّ.

ولما دخل عليّ البواب بالرطب، قلت له: ما هذا وما قصته، فقال: جاء به فلان أحد الخصمين في قضية الأمس، التي لم يتمّ فصل الحكم فيها، فأنكرت ذلك وطردت بوابي، وأمرت بردّ الرطب فردّ فعلاً.

ولما دخل الخصمان مجلس القضاء، فوالله ما استوى الخصمان في قلبي ولا في عيني، هذا مع ردّ الرطب وإنكاري لما حدث، فكيف لو أني قبلت ذلك ورضيته.

ذلك الذي حدث للقاضي الزاهد عافية بن زيد،فخشي على دينه من أن يزيغ في الحكم، فذهب إلى أمير المؤمنين المهدي في وقت الظهر في يوم من الأيام بعد تلك الحادثة، فوجده وحده فاستأذن عليه، فأذن له فدخل عليه يحمل سجلاته وأوراقه، فطلب من الأمير المهدي أن يعفيه من منصب القضاء ،ويستأذنه في تسليم ما بيده إلى من يأمره الأمير بذلك.

فلما سمع أمير المؤمنين المهدي كلام القاضي عافية بن زيد،ظنّ أن بعض الأولياء قد ضايقه بعدم تنفيذ أحكامه،أو أضعف يده في الحكم، فقال القاضي: يا أمير المؤمنين والله ما جرى من ذلك شيء.

فقال الأمير المهدي: إذن فما سبب استعفائك من منصب القضاء؟ فحكى له القصة من أولها إلى آخرها، وما حصل له مع أحد الخصمين الذي تقدم بالرطب ورد القاضي الرطب، وشعوره بعدم استواء الخصمين مع عدم القبول، والإنكار فكيف لوقبل، فقال القاضي: هذا يا أمير المؤمنين الذي جعلني أطلب إعفائي من القضاء، ولا آمن بعد ذلك أن تقع عليّ حيلة أخسر فيها ديني، فأهلك وقد فسد الناس في زماننا، فأقلني يا أمير المؤمنين، أقالك الله وأعفني، فأعفاه وهكذا من يستبرىء لدينه وعرضه، يجب عليه أن لا يجعل نفسه شمعة تحرق نفسها بإضاءة غيرها.

وقال أبو دلامة منها، بورع القاضي عافية بن زيد الأزدي، حيث أنشد قائلا:

لقد خاصمتني غواة الرجا ... ل وخاصمتهم سنة وافية
فما أدحض الله لي حجة ... ولا خيّب الله لي قافية
ومن كنت من جوره خائفاً ... فلست أخافك يا عافية

فلما سمع القاضي عافية شعر أبي دلامة قال له : لأشكونّك يا أبا دلامة إلى أمير المؤمنين، فقال أبو دلامة: ولم تشكوني إلىأمير المؤمنين؟ قال القاضي عافية: لأنك هجوتني في مجلس القضاء، ومجلس القضاء له حرمة.

قال أبو دلامة : والله لئن شكوتني إلى أمير المؤمنين ليعزلنك؟ قال القاضي عافية: ولم؟ قال أبو دلامة: لأنك لا تعرف الهجاء من المدح.

وأبو دلامة لم يخف من حكم القاضي عافيه بن زيد لما يعلمه من تحري الصدق، وعدم التسرّع في الفحص، والتحرز من أجل دينه.

عمر بن عبد العزيز يطلب النصح:

وكتب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، إلى الحسن البصري: إجمع لي أمر الدنيا، وصف لي أمر الآخرة، فكتب إليه: (إنما الدنيا حلم، والآخرة يقظة والموت متوسط، ونحن في أضغاث أحلام،ومن حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر، ومن نظر في العواقب نجا، ومن أطاع هواه ضل، ومن حلم غنم ومن خاف سلم،ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم، ومن علم عمل، فإذا زللت فارجع، وإذا ندمت فأقلع، وإذا جهلت فاسأل، وإذا غضبت فأمسك، واعلم أن أفضل الأعمال ماكرهت النفوس عليه.

تلك هي رسلة العالم العامل الورع التقي، حينما طلب منه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، فقد نصح وأبلغ في النصح، وهكذا شأن العلماء العاملين الورعين، وينبغي للعالم أن لا يكتم عمله لمن يستحقه، ولا يبديه لمن يضيعه، وفي الحديث النبوي الشريف: «**من كتم علما ألجمه الله يوم القيامة بلجام من النار**». نعوذ بالله من النار والعار والشنار.

الخليل بن أحمد في ضيافة راهب:

يحكى أن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي العروضي، اجتاز في بعض أسفاره براهب في صومعة: فقال الخليل: لما رأيت الليل قد أزف، وخفت التوغل في الصحراء وحيداً، اتجهت إلى الصومعة، فطرقت الباب فإذا بصاحب الصومعة يسأل قائلاً: من الطارق؟. فقلت: أنا أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد.

فقال الراهب: أنت الذي يزعم الناس أنك وجه وواحد في العلم بأمر العرب؟ فقلت : كذلك يقولون، ولست كما يقولون، فأنا دون ذلك.

قال الراهب: إن أجبتني عن ثلاث مسائل جواباً شافياً مقنعاً فتحت لك الباب وأحسنت ضيافتك، وبالغت في ذلك،وإن عجزت عن الجواب لا أفتح لك.

فقلت: وما هي تلك المسائل الثلاث؟ قال الراهب:ألسنا نستدل على الشاهد بالغائب؟ قلت: بلى. قال الراهب :فأنت تقول :إن الله تعالى ليس بجسم ولا عرض، ولم نر له مثلاً، فبأي شيء أثبته؟ (العرض وجمعه أعراض الحالة تطرأ على الجسم فتكون من صفاته العارضة،كالبياض والسواد والحركة والسكون).

وقال الراهب :وأنت تزعم أن الناس في الجنة يأكلون ويشربون ولا تكون لهم فضلات، وأنت في الدنيا لم تر آكلاً وشارباً إلا له فضلات.

قال الراهب: وأنت تزعم: أن نعيم أهل الجنة لاينقضي، وأنت لم تر شيئاً إلا منقضيا، فما كان له أول فلا بد أن يصير له آخر.

قال الخليل بن أحمد للراهب:لقد استدللت على ذلك كله، بالشاهد الحاضر فقال الراهب: كيف ذلك؟.

قال الخليل بن أحمد: أما الله تعالى فإني أستدللت عليه بأفعاله الدالة عليه أنه لا مثل له، وفي الشاهد مثل ذلك الروح التي فيك، وفي كل حيوان،وهي سبب الحياة، ونحن نحس بها تحت كل شعرة منا، ومع ذلك فنحن لا ندري أين هي، ولا كيف هي؟ ولا ما صفتها،ولا وجودها، فإذا خرجت الروح من الإنسان يموت ويفقد الحس والحركة ولا يشعر بأي شيء، واستدلالي عليها وعلى وجودها بأفعالها، وبحركاتها، وتصرفنا بكونها فينا.

وأما قولك : إن أهل الجنة لا تكون لهم فضلات مع الأكل والشرب، فالشاهد لا يمنع ، ألا تعلم أن الجنين يتغذى في بطن أمه، ولا يفرز بسبب الغذاء فضلات، فهذا استدلال لذلك، وٱرجع إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [سورة الذاريات: ٢١].

وأما قولك : إن نعيم الجنة لا ينقضي ،مع أن أوله موجود،فإنا نجد أنفسنا نبتدىء الحساب بالواحد، ثم لو أردنا أن لا ينقضي الحساب إلى ما لا نهاية له، نكرره ولا نزال نكرره وأعداده وتضعيفه، وهكذا إلى ما لا نهاية، ولا انقضاء له.

قال الخليل بن أحمد الفراهيدي، فلما أجبته على أسئلته فتح لي الراهب باب الصومعة،وأحسن ضيافتي، وفي الصباح قبل مغادرتي الصومعة شكرت الراهب على حسن الضيافة وذهبت في حال سبيلي.

اختيار الأسماء:

لقد كان العرب يسمون أولادهم بأسماء تدلّ على الشدّة والقوّة والبأس، مثل: فهر وحجر،وصخر وحرب، وعباس ومرداس وجبل، وعلى العكس من ذلك كانوا

يسمّون خدمهم وعبيدهم بأسماء رقيقة مثل: سواد وسويد، وهرم ونمير، وعبيد وفهم وغنم وجحش وجحيش.

ولما سئلوا : ما بالكم تسمون أولادكم بأسماء مستقبحة،وتسمون عبيدكم بأسماء مستحسنة؟ قالوا: كنا نسمي أبناءنا بأسماء تدّل على الشدّة والقوّة والبأس، لأننا نسمي أبناءنا لعدونا، ونسمي خدمنا وعبيدنا بأسماء مستحسنة، لأننا كنا نسميهم لأنفسنا، فهو أخف على ألسنتنا.

ولما جاء الإسم تغيرت حالة الناس،وحتى لا تكون الأسماء مسبَّة لمن سمي بأسماء مستقبحة، حثّ الإسلام على اختيار الأسماء الحسنة.

فقد روي أن النبي ﷺ قال:«**إياك وهذه الأسماء القبيحة، فما من مولود يولد إلا ويحضره ملك وشيطان ، فيقول الملك سموه بكذا إسماً حسناً، ويقول الشيطان سموه بكذا إسماً قبيحاً**»، وقال: «**كنية الرجل أحد شواهد عقله، واسمه أحد شواهد عقل أبيه**».

وقيل أشِيعوا الكنى فإنها منبهة، وقال ﷺ: «**من آتاه الله وجهاً حسناً، وإسماً حسناً وجعله في غير موضع شائن، فهو من صفوة خلقه**».

التفاؤل بالأسماء:

وقد جبل الناس على حبّ الأسماء الحسنة، والتفاؤل بها، ومن هذا القبيل قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ: إن أحبّكم إلينا أحسنكم أسماء، فإذا رأيناكم، فأجملكم منظراً، وفي رواية أجملكم وجهاً، فإذا اختبرناكم فأحسنكم مختبراً.

وخرج يوماً من الأيام أمير المؤمنين هارون الرشيد، فرأى أحد الحرس، فسأله عن اسمه قائلا له: ما اسمك؟ فقال الرجل: إسمي سعيد أسعدك الله يا أمير المؤمنين، فقال أمير المؤمنين: ابن من؟ فقال الرجل: ابن أسلم سلم الله أمير المؤمنين.

قال أمير المؤمنين هارون الرشيد: أبومن؟. قال الرجل: أبو عمرو عمر الله أمير المؤمنين، فقال أمير المؤمنين للرجل: بارك الله فيك، وأكرمه غاية الإكرام إذ تفاءل باسمه واسم ابيه وكنيته.

وقال الشاعر:

وقلما ابصرت عيناك من رجل إلا ومعناه في اسم منه أو لقب

وسأل رجل صبيًّا جميلاً، صبيح الوجه: ما اسمك؟ فقال الصبي الذكي، إسمي وصف وجهي، فقال له الرجل: إن كنت كما تزعم ما أراك تسمى إلا حسناً، فقال الصبي فهو كذلك إسمي، وقد أنشد الشاعر في المعنى:

إن اسم حسنى لوجهها صفة وما رأى ذا لغيرها اجتمعا

فهي إذا سميت فقد وصفت وقد يجمع الإسم معنيين معا

وكما أن الناس يتفاءلون بالأسماء والكنى والألقاب الحسنة، ويعتبرون ذلك فاتحة خير للنصر والظفر ونيل المطالب، وتحقيق ما تصبو إليه النفس، وذلك في الأسماء الحسنة والكنى والألقاب المحبوبة، فقد يصادف الرجل عندما يريد أن يعمد إلى عمل، أو أمر مهم، أسماء مستقبحة فيتشاءم منها فيرى الإحجام أولى من الإقدام،ومن ذلك أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ أراد أن يولي رجلاً، فسأله عن اسمه، فقال الرجل: إسمي ظالم بن سراق،فقال أمير المؤمنين عمر: أنت ظالم وأبوك سراق، لاخير فيك والذي لاخير فيه، لايتعدّى خيره غيره فلم يولِّه.

ومما يتظرّف من أسماء الرجال: وقف رجل بباب أحد الأمراء فسئل عن اسمه، فقال: إسمي من الأرض جميعاً قبضته يوم القيامة، والسماوات مطويات بيمينه، فذهب الخادم يخبر الأمير، فقال: يا سيدي: إن نصف المصحف واقف بالباب، إن شئت أن تأذن بدخول نصف المصحف.

وسئل رجل عن كنيته: فقال: (أبو الحسن وأبو الغمر،فقيل له: ألم تكتف بكنية واحدة؟ فقال الرجل: لا فإن ضاعت مني واحدة بقيت لي الأخرى.

وقيل لأعرابي: ما اسمك؟ قال: إسمي نعامة، فقيل له: على أي شيء هذا الاسم يدل؟. قال: الإسم علامة، ولو كان الإسم كرامه لتشارك الناس كلهم في اسم واحد.

الجود بالموجود:

يحكى أن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب، خرج مرة من المدينة المنورة ذاهباً إلى الشام، يريد معاوية بن أبي سفيان، فأظلمت السماء بالغمام، فنزل المطر فنظر عن يمينه فرأى نويرة، تصغير (نار)، فقال لغلامه: مِلْ بنا نحوها لعلنّا نجد عندها من نأنس به.

فلما وصلا إليها وجدا شيخا ذا هيئة رثة تنبىء عن حاله، فحاله يغني عن سؤاله، فلما رآهما قال لهما: أنيخا وانزلا على الرحب والسعة حييتما، فلما نزلا أسرع الشيخ إلى أهله، فقال لامرأته: هيئي شاتك أقضي بها ذمام هذا الرجل وصاحبه، فإني أتوسم في الرجل خيراً، فإن يكن من مضر فهو من بني عبد المطلب،وإن يكن من اليمن فهو من بني آكل المرار، وكان الرجل لايملك إلا تلك الشاة، ومنها طعام صِبْيته.

فقالت المرأة زوجته: لقد علمت حال صِبْيتنا وأن معيشتهم منها ،وأخاف الموت عليهم إن فقدوها، فقال الرجل: فو الله لموتهم أحبّ إلي من اللّوم بخلاً، ثم عمد إلى الشاة فأخذها وأخذ شفرة وأنشد:

قريبتي لا توقظي بنيّا إن يوقظوا ينسحبوا عليّا
وينزعوا الشفرة من يديّا أبغض هذا أن يرى لديّا

ثم ذبحها وكشط جلدها، وقطعها أرباعاً، وقذفها في القدرحتى إذا نضجت ثرد في جفنة، فعشاهم ثم غداهم.

ولما أراد عبيد الله بن العباس الرحيل، قال لغلامه:اعط الشيخ ما معك من نفقة، وكان عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب مشهوراً بالجود والسخاء والكرم.

فقال له غلامه: لقد ذبح لك الشاة، فكافئه بعشرة أمثالها، فيكفيه ذلك، وهو لا يعرفك، فقال عبيد الله: ويحك إن هذا الرجل لم يكن يملك من الدنيا غير هذه الشاة، ومع ذلك فجاد لنا بها، وآثرنا على صِبْيته، وهو لا يعرفنا، فإذا كان لا يعرفنا، فأنا أعرف نفسي، إرم بها إليه، فرماها إليه ،وتناولها الشيخ فوجدها خمسمائة دينار، ولا تسل عن فرحة الشيخ وأهله وصِبْيته، لقد فوجىء الجميع بذلك المبلغ الضخم، ولعلّهم لم يسمعوا مجرد سماع به فضلاً من امتلاكه، ولقد صدق ظنّ الشيخ فيما توسّمه في ضيفه.

ثم ارتحل عبيد الله بن العباس مودّعا الشيخ الكريم، في طريقه إلىمعاوية ابن أبي سفيان، فلما قضى حاجته أقبل راجعا إلى المدينة المنورة، حتى إذا قرب من منزل الشيخ، قال لغلامه: مِلْ بنا نحو الشيخ ننظر حاله، فلما وصلا إليه وجدا رجلاً سريًّا، قد علا دخان ناره من طهي الطعام، وكثرة رماده ولديه إبل وغنم، ففرح عبيد الله بن العباس بذلك، إذ رأىأثر نعمة الله على الشيخ.

فلما رأى الشيخ عبد الله وصاحبه ، قال لهما: آنزلا على الرحب والسعة فقال له عبيد الله: أتعرفنا؟. فقال الشيخ : لا والله لا أعرفكما، فمن أنتما؟، فقال عبيد الله: إنّا نزيليك ليلة كذا وكذا، وهذا صاحبي، فلم يتمالك الشيخ أن قام مسرعاً فقبل رأسه ويديه ورجليه، وقال لقد قلت أبياتاً بعد أن رحلتما عنا: أتسمعها مني؟. فقال عبيد الله: هات أبياتك فأنشد:

توسمته لما رأيت مهابة ... عليه وقلت المرء من آل هاشم
وإلا فمن آل المرار فإنهم ... ملوك عظام من كرام أعاظم
فقمت إلى عنز بقية أعنز ... لأذبحها فعل امرىء غير نادم
فعوضني عنها غناي ولم تكن ... تساوي عنزي غير خمس دراهم
فقلت لأهلي في الخلاء وصبيتي ... أحقاً أرى أم تلك أحلام نائم

فلما سمع عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب الأبيات ضحك، وقال : يا شيخ لقد أعطيتنا أكثر وأبقى مما أعطيناك،يا غلام أعطه مثلها، وبلغ خبر عبيد الله مع الشيخ معاوية بن أبي سفيان فقال: لله درعبيد الله من أي بيضة خرج، وفي أي عش درج.

وقيل لبعض الأعراب، وقدأسلم لما عرف دعوته ﷺ: عن أي شيء أسلمت؟. وما رأيت منه مما دلّك على أنه رسول الله؟. فقال الأعرابي: ما أمر بشيء، فقال العقل: ليته حرمه، ولاحرم شيئا فقال العقل: ليته أباحه، فذلك الذي جعلني أسلم.

عدلت فأمنت فنمت:

ويحكى أن كسرى ملك الفرس أرسل رسولاً إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ لينظر أحواله، ويشاهد أفعاله، فلما دخل المدينة المنورة، سأل أهلها، وقال: أين ملككم؟.

فقالوا: ما لنا ملك، بل لنا أمير المؤمنين، وقد خرج إلى ظاهر المدينة، فخرج رسول كسرى في طلبه ويسأل من لقي عنه، فقال له أحدهم: ذلك هو أميرنا النائم في الشمس، فقصده رسول كسرى، فلما رآه على تلك الحال نائماً في الشمس على الأرض، فوق الرمل الحار، وقد وضع عصاه تحت رأسه كالوسادة، والعرق يسيل من جسمه وقد بلّ الأرض بالعرق.

فلما رآه رسول كسرى،على تلك الحالة هابه، ووقع الخشوع في قلبه وقال قولته المشهورة: (رجل يكون جميع الملوك لا يقرّ لهم قرار لهيبته، وتكون هذه حاله فلا جرم، ولكنك يا عمر عدلت فأمنت فنمت. وملكنا حكم فجار فهولا جرم لا يزال ساهراً خائفاً).

وقد صور هذا الموقف شاعر النيل حافظ إبراهيم تصويراً رائعاً فريداً في قصيدته العمرية ، حيث قال:

قد راع صاحب كسرى أن رأى عمرا ... بين الرعية عطلاً وهو راعيها
وعهده بملوك الفرس أن لها ... سوراً من الجند والأحراس يحميها
رآه مستغرقاً في نومه فرأى ... فيه الجلالة في أسمى معانيها
فوق الثرى تحت ظل الدوح مشتملاً ... ببرده كاد طول الدهر يبليها
فهان في عينه ما كان يكبره ... من الأكاسر والدنيا بأيديها
فقال قولة حق أصبحت مثلاً ... وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها
أمنت لما أقمت العدل بينهم ... فنمت نوم قرير العين هانيها

وقد كان اهتمام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، بأمر الناس أكثر من اهتمامه بخاصة نفسه وأهله، وذلك يدل على عظم المسؤولية التي تقلّدها، ويخاف الله تعالى إن قصر فيها، واستمع إلى الشاعر حافظ إبراهيم، وهو يصور رحمته

واهتمامه بأمة محمد ﷺ حيث قال:

ومن رآه أمام القدر منبطحاً والنار تأخذ منه وهو يذكيها
وقد تخلل في أثناء لحيته منها الدخان وفوه غاب في فيها
رأى هناك أمير المؤمنين على حال تروع لعمر الله رائيها
يستقبل النار خوف النار في غده والعين من خشية سالت مآقيها

إنه موقف عظيم، من مواقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يدل على سهره وتفقّده لمصالح الناس.

حراسة القافلة:

وقال عبد الرحمن بن عوف ﷺ: دعاني أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ذات ليلة وقال: قد نزل بباب المدينة قافلة، وأخاف عليهم إذا ناموا أن يسرق شيء من متاعهم، فمضيت معه فلما وصلنا قال لي: نم أنت ثم إنه جعل يحرس القافلة طول ليلته.

حاجة الإنسان إلى المداراة:

إن مدارة الناس من الأمور التي يضطر إليها الإنسان لكسب مصلحة أو لدفع مضرة، وجاء قول بعضهم: على العاقل أن يداري الناس مدارة الرجل السايح في الماء الجاري،ومن ذهب إلى عشرة الناس من حيث هو كدرعلى نفسه عيشه، ولم تصف له مودتهم، ولأن وداد الناس لا يتجلب إلا بمساعدتهم على ما هم عليه،إلا أن يكون مأثماً أو معصية، فلا سمع ولا طاعة،والبشر قد ركب فيهم أهواء مختلفة، وطباع متباينة، فكما يشقّ عليك ترك ما جبلت عليه نفسك، فكذلك يشقّ على غيرك مجانبة مثله.

لذا: فليس إلى صفو ودادهم سبيل إلا بمعاشرتهم من حيث هم، ومحال تجبن مخالفتهم في كل الأوقات، ومن لم يعاشر الناس على لزوم الإغضاء فيما ليس فيه معصية تكدّر عيشه، ومن لم يدارِ صديق السوء، كما يداري صديق الصدق

فليس بحازم، ولقد أحسن الشاعر الذي يقول:

تجنب صديق السوء واصرم حباله وإن لم تجد عنه محيصاً فداره
وأحبب حبيب الصدق وأحذر مراءه تنل منه صفو الود ما لم تماره

وذلك لأنه إذا كان كلما رأى من أحد زلة رفضه لزلته، بقي وحيداً لا يجد من يعاشر وفريداً لا يجد من يصاحب، بل يغضي على الأخ الصديق زلاته، ما لم يكن في معصية،ولا يناقش الصديق السيء على عثراته، وقال الشاعر في المعنى:

وأغمض عيني عن صديقي كأنني لديه بما يأتي من القبح جاهل
وما بي جهل غير أن خليقتي تطيق احتمال الكره فيما أحاول
متى ما يريني مفصل فقطعته بقيت وما لي في نهوضي مفاصل
ولكن أداريه وإن صحّ شدني فإن هو أعيا كان فيه تحامل

وقال العلماء في المداراة: قال المناوي: المداراة: الملاينة والملاطفة، وأصلها المخاتلة، وقال ابن بطال: المداراة: خفض الجناح للناس، ولين الكلام، وترك الإغلاظ لهم في القول، وقال ابن منظور: المداراة: المخالفة والمدافعة، ويقال: فلان لا يداري، ولا يماري، والمداراة: تعتبر من حسن الخلق والعشرة.

وقال الماوردي: إذا كان للإنسان عدو، وقد استحكمت شحناؤه واستوعرت سراؤه، واستخشنت ضراؤه، فهو يتربص بدوائر السوء، وانتهاز فرصة ويتجرّع بمهانة العجز مرارة غصة، فإذا ظفر بنائبة ساعدها، وإذا شاهد نعمة عاداها، فالبعد عن هذا خير وأسلم والكف عنه متاركة أغنم، لأنه لا يسلم من عواقب شرّه، ولا يفلت من غوائل مكره إلّا بالبعد عنه أو مداراته.

وقال لقمان لابنه: يا بني كذب من قال إنّ الشرّ بالشرّ يطفأ، فإن كان صادقاً، فليوقد نارين ولينظر هل تطفىء إحداهما الأخرى، وإنما يطفئ الخير الشر كما يطفئ الماء النار.

وأما إذا كان ذلك العدوّ لئيم الطبع خبيث الأصل، فمثل هذا لا يتقبح الشر ولا يكفّ عن المكروه، فهذا حاله أطمّ، وضرره أعمّ، ولا سلامة منه إلّا بالبعد

عنه والانقباض، ولا خلاص منه إلا بالصفح والإعراض، لأنه كالسبع الضاري في سوارح الغنم، وكالنار بطبع لا يزول ، وجوهر لا يتغيّر ولا يتبدّل وقال الشاعر:

وإذا عجزت عن العدو فداره وأمزح له إن المزاح وفاق
فالنار بالماء الذي هو ضدها تعطي النضاج وطبعها الاحراق

ويروى أن النبي داود عليه السلام، جلس كئيباً خالياً، فأوحى الله إليه: (يا داود ما لي أراك خالياً كئيباً؟). قال : يا ربِّ هجرت الناس فيك قال: أفلا أدلّك على شيء تبلغ به رضائي؟: (خالق الناس بأخلاقهم واحتجر الإيمان فيما بيني وبينك).

أشر الناس:

وفي الحديث النبوي الشريف :عن عروة بن الزبير أن عائشة أخبرته أنه استأذن على النبي ﷺ رجل، فقال ﷺ: «**ائذنوا له فبئس ابن العشيرة، أو بئس أخو العشيرة**» فلما دخل ألان له الكلام، فقلت له : يارسول الله، قلت ما قلت ثم ألنت له في القول، فقال ﷺ: «**أي عائشة إن شر الناس منزلة عند الله من تركه أو وعده الناس إتقاء شره**».

وقال الحسن البصري: كانوا يقولون: المداراة نصف العقل، وأنا أقول: هي العقل كله.

ويحكى عن أبي يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة أنه قال: خمسة يجب على الناس مداراتهم: الملك المسلّط، والقاضي المتأوّل، والمرأة والعالم، ليقتبس من علمه.

وقال الإمام الشافعي:

لما عفوت ولم أحقد على أحد أرحت نفسيَ من هم العداوات
إني أحيي عدوي عند رؤيته لأدفع الشر عني بالتحيات
وأظهر البشر للإنسان أبغضه كأنما قد حشا قلبي محبات
ألناس داء وداء الناس قربهم وفي اعتزالهم قطع المودات

رضاء الناس غاية لا تدرك:

وقال أحد العلماء: من التمس رضا جميع الناس التمس ما لايدرك، ولكن يقصد العاقل رضا من لا يجد من معاشرته بدّا، وإن دفعه الوقت إلى استحسان أشياء من العادات، كان يستقبحها واستقباح أشياء كان يستحسنها ما لم يكن مأثماً أو معصية، فإن ذلك من المداراة المستحسنة، وما أكثر من دارى فلم يسلم،فكيف توجد السلامة لمن لا يداري، وقال الشاعر:

مادمت حيًّا فدار الناس كلهم فإنما أنت في دار المداراة
من يدر داري ومن لم يدر سوف يرى عما قليل نديماً للندامات

وقال محمد بن الحنفية: ليس بحكيم من لا يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدًّا، حتى يجعل الله له فرجاً ومخرجاً، وأنشد المتنبي في المعنى:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوًّا له ما من صداقته بدُّ

وعن أبي مليكة أن النبي ﷺ أهديت له أقبية من ديباج مزردة بالذهب فقسمها في أناس من أصحابه، وعزل واحداً لمخرمة بن نوفل فجاء ومعه ابنه المسور بن مخرمة، فقام على الباب، فقال: ادعه في فسمع النبي ﷺ صوته ، فأخذ قباء فتلقاه به واستقبله بأزراره، فقال: يا أبا المسور خبأت هذا لك، وكان في خلقه شيء.

وقال معاوية بن أبي سفيان: لو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لأنهم إن مدوها خليتها ، وإن خلوها مددتها.

وقال ابن بطال: المداراة من أخلاق المؤمنين، وهي من أقوى أسباب الألفة بينهم، فإن قال بعضهم إن المداراة هي المداهنة، وهذا غلط، لأن المداراة مندوب إليها ، والمداهنة محرّمة، والفرق بينهما أن المداهنة من الدهان، وهو الذي يظهر الشيء، ويستر باطنه، وقد فسرها العلماء بأنها معاشرة الفاسق ، وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه.

والمداراة هي الرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله، وترك الإغلاظ عليه، حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل، ولا سيما إذا احتيج إلى تأليفه.

وقال الشاعر صالح بن عبد القدوس:

أرضى عن المرء ما أصفى مودته ... وليس شيء من البغضاء يرضيني
والله لو كرهت كفي مصاحبتي ... لقلت إذ كرهت يوماً لها بيني
ثم انثنيت على الأخرى فقلت لها ... أتسعدينني وإلا مثلها كوني
إني كذاك إذا أمر تعرض لي ... خشيت منه على دنياي أو ديني
خرجت منه وعرضي ما أدنسه ... ولم أقم غرضاً للنذل يرميني
وملطف بي مدار ذي معاشرة ... معض على وغر في الصدر مكنون
ليس الصديق الذي تخشى بوادره ... ولا العدو على حال بمأمون
يلومني الناس فيما لو أخبرهم ... بالعذر فيه ويوماً لم يلوموني

وقال الشاعر الجاهلي الحكيم زهير بن أبي سلمى:

ومن لم يصانع في أمور كثيرة ... يضرّس بأنياب ويوطأ بمنسم

وقال النمر بن تولب:

وأبغض بغيضك بغضاً رويداً ... إذا أنت حاولت أن تحكما
وأحبب حبيبك حباً رويداً ... فليس يعولك أن تصرما

المداراة لا تكون إلا في الأمور الدنيوية فقط، وتحرم إذا كانت في أمور الدين، فإن كانت في أمور التدين فهي المداهنة.